ربيع العرب:" انهيار جدار الخوف"

تونس، مصر، اليمن، البحرين، ليبيا، عُمان، الجزائر، المغرب، موريتانيا، وحتى العربية السعودية. ليست قائمة البلدان التي عصف فيها "ربيع العرب" شاملة. فاروق مردم بك مؤرخ مولود في دمشق، وهو مدير سلسلة سندباد في دار نشر أكت سود (Actes Sud). نشر مجموعة من النصوص لكتاب مختلفين في كتاب "ساركوزي في الشرق الأوسط" (2010). وها هو يساعدنا على فك ألغاز تسارع عجلة التاريخ التي نشهدها اليوم.

هل كنتم تتوقعون حركة التحرر هذه في العالم العربي؟

فاروق مردم بك. كان لدينا جميعاً في العالم العربي شعور بأن الأحوال ستتغير. لكن أياً منا لم يكن يتوقع أن تتغير الأمور بهذه السرعة الفائقة، سواءً في تونس أو في مصر. من كان بوسعه أن يتخيّل أن تضحية محمد بوعزيزي بنفسه ستطلق انتفاضة الشباب التونسي وتدفع الشعب إلى اقتحام الشارع لقلب دكتاتورية قاسية في فترة زمنية قياسية؟ أيضاً، من كان يدري أنه ثمة في مصر شبيبة ثابتة العزم وتمتاز بنضوج سياسي؟ نحن نشهد ولادة قوة سياسية جديدة استخلصت دروس الأخطاء الماضية فرفعت شعارات محسوسة ومفهومة من قبل الشعب: حرية، كرامة، عدالة اجتماعية . أما بالنسبة لليبيا، فكان لا بد من شرارة، ولقد أتت من الشرق في السابع عشر من فبراير/شباط حين سجنت السلطة محامي أسر ضحايا مجزرة سجن أبو سليم لعام 1996 لأنه طالب بإحقاق العدالة للضحايا البالغ عددهم 1200 قتيل. حتى ذلك الحين، حجب ظل شخصية القذافي غريبة الأطوار شقاءَ الشعب الليبي، وكان أقوياء هذا العالم قد غفروا له جرائمه لقاء صفقات مجزية... ويعود الفضل في تحوّل الاحتجاجات الى انتفاضة شعبية حقيقية، بعد تونس ومصر، الى انهيار جدار الخوف. ويشعر العرب اليوم أن إسقاط دكتاتور بات أمراً ممكناً.

من أين ينبع هذا الحراك العام؟

فاروق مردم بك. هناك نوعان من المعطيات. ثمة المعطيات التاريخية المعروفة من الجميع. منذ السبعينات تشكلت في العالم العربي منظومة استبدادية فريدة من نوعها. وقعت سلسلة من الانقلابات بعد هزيمة 1967: في العراق، وليبيا، والسودان، وسورية. وفي عام 1970، مات جمال عبد الناصر الذي كان يجسّد شرعية شعبية معينة بكفاحه ضد الامبريالية. وشهدنا آنذاك أيضاً انعكاساً في المنحى العام نحو العلمنة الذي كان ابتدأ في القرن التاسع عشر مع حركة الإصلاح المؤسساتية والنهضة الثقافية. وبالتوازي مع الثورة الايرانية، نشأ الاسلام الجهادي في العالم العربي مع الجهاد الأفغاني المموّل من العربية السعودية والمدعوم من الولايات المتحدة. الى أن وصلنا الى "خيار البدائل" المفروض على الشعوب العربية: إما الأنظمة الاستبدادية المفترسة، وإما الاسلاموية. لكن يوجد معطيات أخرى: اتجاهات عامة عميقة ملحوظة من علماء الديموغرافيا تنحو الى تأكيد موقع الفرد وتنامي مكانة النساء في الحياة الاجتماعية. وعلى الرغم من المظاهر الخارجية الخادعة، مثل لبس الحجاب على سبيل المثال، ارتفع مؤشر عمل النساء في كافة الدول العربية وانخفض معدّل الولادات. إنها معطيات وازنة يجهلها السياسيون غالباً. في الثورتين الأوليين، شارك جميع أطياف السكان. لم يكن الشعار الغالب ديني الطابع. حتى في ليبيا حيث التدين الشعبي قوي جداً، كانت المطالبة واضحة: حكومة مدنية، انتخابات حرّة، دستور ديمقراطي يمكّن الجميع من المشاركة في الحياة السياسية.

هل كانت هذه التحوّلات مُستشرفة من قبل المؤلفين والأعمال التي تنشرونها؟

فاروق مردم بك. نعم، بكل تأكيد. أطاح الشعراء والروائيون بالمحرّمات – الدينية والسياسية والجنسية- التي رخت بثقلها على هذه المجتمعات. شخّص الكاتب المصري صنع الله إبراهيم الأمراض التي تعاني منها مصر: الدكتاتورية، الفساد، الظلامية، والإذعان للولايات المتحدة. وبيّن أن هذه الحالة بمثابة مفارقة تاريخية لا تتناسب مع مكانة مصر ووعي المصريين. ورسم علاء الأسواني، مؤلف كتاب "عمارة يعقوبيان" لوحة قاسية لبلده في ظل نظام مبارك. وكانت

مقالاته الصحفية المتابعة عن كثب للأحوال السياسية والاجتماعية تُبرز الشعور العام بأنه طفح الكيل. وهذان المؤلفان اليوم هما من الوجوه الثقافية البارزة للثورة المصرية. ويسعني قول الأمر نفسه عن كتاب آخرين من مصر، وكذلك عن كتاب سوريين وجزائريين ولبنانيين وسعوديين... إنه أدب حرّ متداول في حقل ثقافي عربي موحّد رغم الرقابة والحدود.

ما هي الأخطار التي تتهدّد هذه الثورات؟

فاروق مردم بك. بادىء بدء، إنها الثورة المضادة بالطبع. رغم أنه جرى إزاحة رموز مهمة من النظام القديم في هذه البلدان، إلا أن المنتفعين منه كثر ولديهم قاعدة اجتماعية وإمكانات مالية وشبكات مصالح وحجج ديماغوجية. إنه لأمر جوهري لهذه الثورات- التي هي على سبيل التذكير ديمقراطية الطابع وغير عنيفة وتطالب بالحرية والكرامة فحسب- أن لا تتوقف في منتصف الطريق لأن الخاسرين سيحاولون الانقضاض على الثورة بعنف شديد. لكن يمكن الرهان على ما شهدناه من يقظة شعبية ونضوج سياسي، ولا سيما في أوساط الشباب الذين يواصلون الاعتصام والتظاهر وتعبئة الشعب حول مطالبهم.

هل ينبغي التدخل في ليبيا؟

فاروق مردم بك. قد يرغب المعسكر الغربي في التدخل. آمل أن لا يتم ذلك على شاكلة تدخل عسكري، الذي سيكون مأساوياً وبالغ الخطورة لأنه اليوم من مصلحة القذافي والجهاديين على السواء. لقد قالها الشعب الليبي بالإجماع: لا نريد تدخلاً عسكرياً خارجياً، بل إسقاط النظام بإمكاناتنا الخاصة. جلّ ما يطلبه مساعدة إنسانية، أغذية وأدوية وتعبئة عالمية لمؤسسات حقوق الانسان.... وأن تقوم الصحافة العالمية بعملها بنزاهة وموضوعية.

ما هي رؤيتك لتطور هذه الحركات؟

فاروق مردم بك. إننا نعيش أياماً استثنائية. لن تتوقف هذه الموجة العارمة، وإن أخذت

الانتفاضات الشعبية اليوم وغداً أشكالاً مختلفة. فلكل بلد عربي ظروفه الخاصة، وعلاقة العرب بحكامهم تتباين من بلد لآخر وإن كانت مطالبهم مشتركة بينهم وتتلخص بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية. وليس مستحيلاً أن نشهد تحركات شبابية مشابهة في مناطق أخرى من العالم. إن العالم العربي في سبيله إلى الخروج من "اللعنة" التاريخية، اعني الخيار الذي حاولوا أسره فيه بين الاستبداد والاسلاموية. حان الآن دور الغربيين للقيام بثورة عقلية لإعادة النظر في علاقاتهم بهذه البلدان.

أجرت المقابلة شارلوت بوزوني.

جريدة الأومانيتيه ديمـــانش L'Humanité Dimanche، في7 آذار 2011.